في ذكرى استشهاد الفريق عبد المنعم رياض ، جنرال مصر الذهبي

بقلم : رائف محمد الويشى

9 مارس 2012

تحدثنا في دراسة سابقة من أربع حلقات عن الفريق أول محمد فوزي ، وقد ذكرنا السنوات الثلاث التي تلت النكسة والتي تولى المسئولية فيها كقائد عام للقوات المسلحة المصرية ووزير للحربية ، ورأينا كيف نهضت مصر من انكسارها وهزيمتها المدوية إلى منازلة إسرائيل التي ظن العالم أن قوتها العسكرية بعد 1967 ستفرض على مصر قراراتها لعقود قادمة ..

ها هي إسرائيل في يوليو 1970 تطلب من وليم روجرز وزير خارجية أمريكا بأن تكون مبادرته لوقف إطلاق النار دائمة أو لمدة طويلة ، ها هي مصر تصر على أن يكون وقف إطلاق النار في تلك المبادرة مقيدا بثلاثة أشهر فقط ..

لا يكتمل الحديث عن الفريق أول محمد فوزي القائد العام ووزير الحربية في ذلك الوقت دون الحديث عن الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركانه ، فكل منهما مرآة للأخر في نواحي عديدة ، فقد اجتمعت في الرجلين علامات كثيرة جعلت منهما أشبه بتوأميْن :

إذا تحدثنا عن الجذور العائلية ، فكلاهما جاء من أسرة عسكرية ، فالأول كان أبوه مديرا لمدرسة المدفعية وجده كان ياورا للخديوي ، والثاني كان أبوه العقيد محمد رياض عبد الله قائدا (بلوكات) طلبة الكلية الحربية ..

إذا تحدثنا عن السلاح ، فكلاهما جاء من سلاح واحد ، ومن تخصص واحد داخل هذا السلاح ، فقد درسا وتخرجا من سلاح المدفعية ثم تخصصا في المدفعية الصاروخية (الدفاع الجوى) ..

إذا تحدثنا عن المزاج الشخصي لكل منهما ، فإننا سنجد أكبر عوامل التكامل بين الرجلين ، فهما يكرسان حياتهما للعسكرية ولا شيء سواها ، ويطبقانها حرفيا كما نص عليها الكتاب الذي درسا فيه في فصول الدراسة بالكلية الحربية ، فقد كانا بعيديْن عن الاستقطاب من قبل مجموعة عبد الحكيم عامر التي حولت الجيش إلى شلل وجماعات ، وكانا عزيزيْن النفس ويؤديان الواجب الوطني بتجرد شديد ..

إذا تحدثنا عن الشرعية في قاموس حياة كل منهما ، فإننا سنجد نفس المعاني هنا وهناك ، وهى أن لهذا البلد قائدا يجب أن نلتف حوله لأنه يمثل الشرعية ، وإذا اختلفنا معه فعلينا أن ننسحب بهدوء ونترك المكان لغيرنا ليكمل المسيرة ..

إذا تحدثنا عن القدرة على مواجهة التحدي عند الرجلين ، فقف هنا كثيرا ودع القلم يذكر ما فعلاه للتاريخ ولمصر وكرامتها ، لقد نقلا الهزيمة إلى صمود ثم إلى مقارعة وردع في فترة زمنية قصيرة ..

إذا تحدثنا عن العقل والمنطق عندهما ، فكل خطوة عندهما لها سبب ، وكل تحرك لابد أن يقوده العقل ، لا مكان عندهما

للانفعال ولا قرار يتم اتخاذه والقائد غاضبا ، لابد للقائد أن يكون هادئا عند اتخاذه القرار ، لأن الأمة بأسرها ستجنى أو تدفع الكثير من تبعات هذا القرار ..

إذا تحدثنا عن دور العلم العسكري التراكمي عندهما ، فكل منهما كان دائم السهر لمتابعة كل جديد في هذا الشأن ، فقد كانت لكل منهما شهية لا تنتهي لفتح الكتب العسكرية العالمية واستخلاص أحدث الخطط من صفحاتها ..

إذا تحدثنا عن الزهد عند الرجلين ، فلابد أن تلين لهما القلوب المتحجرة ، فكلاهما نشأ في أسرة عريقة وثرية ، لكن حياتهما كانت كحياة الطبقة الوسطى من أبناء مصر ، وكلاهما غادرا الحياة ولا يملكان غير الشقة المتواضعة التي كانا فيها منذ أن كانا شابيْن ، فلم يكن في حياتهما مكان للتزلف من أجل منصب أو " سبوبة " لكسب قرش من هنا أو هناك ، كما فعل عبد الحكيم مع أفراد شلته ، وكما واصل السادات من بعده ، وكما بالغ مبارك بتقسيم ثروة مصر بينه وبين جنرالاته ليضمن بقاءه ومرور التوريث من بعده ..

لكن كانت هناك عوامل اختلاف بين الرجليْن ، وكان من الضروري أن تتوافر تلك الاختلافات بينهما كي يكتمل البناء من أجل مصر ، كأنهما عقدا اتفاقا مع القدر على أن يختلفا في عدة نقاط كي يزداد معدن مصر ثقلا ..

الفريق أول محمد فوزي كان متزوجا وأنجب أولادا ، بينما الفريق عبد المنعم رياض لم يكن متزوجا ، وهنا نلاحظ أن الانشغال لدى الأولى كان يقوم بالسهر عليه الثاني ..

الفريق أول محمد فوزي كان معروفا عنه صرامته في التعامل مع العسكريين من أجل فرض الانضباط ، بينما الفريق عبد المنعم رياض كان يحقق الانضباط والبسمة تعلو وجهه ، هكذا يكتمل البناء في روعته في إيجاد التوازن بين الرجلين ليقودا موكب الرجال دون انكسار من شدة ولا اعتصار من لين ..

كان من الطبيعي والحال كذلك أن يختار الفريق أول محمد فوزي على الفور – وهو يجلس مع الرئيس عبد الناصر - الفريق عبد المنعم رياض كرئيس للأركان في السابعة من مساء يوم الأحد 11 يونيه 1967 (سادس أيام النكسة) ليكون يده اليمنى التي تبنى الجيش المصري الحديث من نقطة الصفر ..

خرج الفريق أول محمد فوزي من اجتماعه مع الرئيس عبد الناصر ليستدعى على الفور الفريق عبد المنعم رياض من الأردن ، فقد كان هناك يتولى قيادة قوات الجبهة في الأردن خلال أيام الخرب الستة التي مضت ..

كانت إسرائيل في اليوم السابق (السبت 10 يونيه 1967) قد أعلنت موافقتها على وقف إطلاق النار ، ولم لا وقد تحقق لها أكثر مما كانت تحلم به بكثير في سوريا والأردن ومصر ! ..

في صباح الاثنين 12 يونيه 1967 كانت معالم الخطة واضحة عند الرجلين ، فقد كشف عنها مئات الآلاف من الرجال الذين حاصروا بيت عبد الناصر ليومين سابقين طالبين منه العودة إلى عمله ومرددين " هنحارب " ..

التف حول الرجليْن كوكبة من أطهر رجال مصر ، ليخرجوا جميعا مصر من نكبتها التي وقعت فيها ، التقطوا الأنفاس عدة أيام كي يتمكن من علق في رمال سيناء من العودة إلى الضفة الغربية .. وصلت أولى النجدات من جزائر العرب في يوم الخميس 8 يونيه ، كانت عشرات الطائرات كي تحل محل الطائرات المدمرة على الأرض والتي لم يتح لطياريها فرصة القتال ، فالقائد الذي أفسد الجيش وحوّله إلى جماعات وشلل كان في الجو وقيّد القوات الأرضية والجوية ، ومعه غرقت مصر ودفع رجالها الثمن دما .. ظن العاملون على أجهزة الرصد بأن هناك هجوما من ناحية الغرب ، ذهب الخوف بعد لحظات عندما علموا أن الأشقاء في الجزائر يلبون نداء الواجب ..

كانت المدفعية هي الرد الأوّل الذي استخدمه الرجلان ، حمم النار تلامس أجساد من لامس الضفة الشرقية وتخبره بأنه سيغوص في رمال سيناء الواسعة ..
سيناء برمالها تشتت جيش إسرائيل ، فمساحتها تعادل ثلاث مرات مساحة إسرائيل ، وهناك في داخل إسرائيل من قال إنها خدعة من المصريين لتفريق قوتنا التي يجب أن تكون في الضفة الغربية وهضبة الجولان ، لقد تاه شعبنا هناك في تلك الرمال منذ ألفى عام – هكذا قالوا - وسنضيع أيضا إن لم نخرج منها وبسرعة ..

كانت النكسة اختبارا عمليا لإثبات القدرات الفذة التي يتمتع بها الفريق عبد المنعم رياض ، فهو ابن كلية الطب الذي دخلها بضغط من أسرته وتركها في الصف الثاني ليكون منغمسا في عشق أبدى لحبيبته ، هكذا يكون العشق موتا واستشهادا ..

لقد دفع هذا العشق بطل مصر في كل العصور ليتخصص فيه أكثر وأكثر ، فقد تخرج من الكلية الحربية برتبة ملازم في عام 1938 (ولد في عام 1919) ، ثم حصل على رسالة الماجستير في العلوم العسكرية في عام 1944 وكان ترتيبه الأول على دفعته ، ثم أتم دراسته في عام 1946 كمعلم للمدفعية الصاروخية في بريطانيا بدرجة امتياز ، ثم حصل على الوسام الذهبي لدوره في حرب فلسطين ، ثم تولى وهو برتبة مقدم إدارة مدرسة المدفعية المضادة للطائرات في عام 1951 ، ثم قائدا للواء الأول المضاد للطائرات في عام 1953 ، ثم مديرا لسلاح المدفعية المضادة للطائرات في عام 1954 ، ثم سافر في عام 1958 إلى الإتحاد السوفيتي في دورة تعليمية لمدة عام وتخرج منها بدرجة امتياز وحصل هناك على لقب " الجنرال الذهبي " وترك هناك مكانا كبيرا في قلوب الخبراء السوفييت ، ثم عاد في 1960 ليرأس أركان سلاح المدفعية ، ثم نائبا لرئيس غرفة العمليات في عام 1961 ، ثم رئيسا لأركان القوات العربية الموحدة في عام 1964 ، وبعد أن رقى إلى رتبة فريق في عام 1966 أسندت إليه قيادة القوات المشتركة (المصرية الأردنية) من مقر قيادته المتقدم في الأردن في 1 يناير 1967 ، ثم قائدا عاما للجبهة الأردنية قبل وبعد النكسة بأيام ..

كان صدر عبد الحكيم عامر يضيق بالرجليْن ، فهما – أولا - يرفضان الانضمام إلى " الشلة " التي كونها داخل الجيش لحسابه ، وهما – ثانيا - حصلا على رتبتيْهما بجدارة ، وأحدهما من دول كبرى عُرف عنها الانضباط العسكري ، بينما صعد هو من رتبة رائد إلى رتبة المشير ، والأعمق سوءا أنه لم يحاول أن يرتقى بمستوى ثقافته إلى تلك الرتبة الجديدة التي صنعها لنفسه ..

هكذا شأن الثورات ، إما أنها تطبق المقولة المعروفة عنها بأنها تأكل بعضها ، وإما أن يصمت قائدها وصانعها حتى لا تتفتت البلد وتدخل في اقتتال داخلي ، والعدو القابع على الأبواب سيغذيها لو اندلعت شرارتها ، هكذا صمت عبد الناصر على تصرفات الرجل الثاني في الثورة والتي وصلت إلى حد تهديده بعزله بعد الانفصال عن سوريا ..

(لمزيد من المعلومات حول طبيعة العلاقة بين عبد الحكيم عامر وعبد الناصر ننوه إلى مقال بعنوان " حديث من القلب إلى السلفيين والإخوان المسلمين " لكاتب المقال على مدونته) ..

أخبر عبد الناصر زميله في الثورة أن الحشد الذي يقوم به في سيناء يتطلب وجود كل من الفريق أول محمد فوزي والفريق عبد المنعم رياض ليقدما له العون ، لم يشعر عبد الحكيم عامر بأي ارتياح لهذا العرض ، فالشلة التي صنعها داخل الجيش ووضع شمس بدران على رأسها كانت تسيطر على كل شيء ، وكانت تتوجس خيفة من اقتراب هذين الرجلين من قيادة أي تشكيل عسكري ..

بعد محاولات طويلة من جانب عبد الناصر وافق عبد الحكيم عامر على أن يتولى الفريق أول محمد فوزي رئاسة الأركان (قال حينها أن فوزي سيكون منفذا لقراراتي وليس صانعا لأي قرار) ، كما وافق أيضا على أن يتولى الفريق عبد المنعم رياض قيادة القوات في الأردن ، لقد ظن أن إبعاد الرجليْن عن بعضهما سيضمن له ولجماعته مزيدا من الأمان ، وضاعت مصر بقرارات عشوائية اتخذها وأمر كل الضباط بتنفيذها دون نقاش ، وكان أخطرها قرار الانسحاب من سيناء في عصر يوم الثلاثاء 6 يونيه 1967 ..

مر عشرون يوما بعد النكسة ، صمتت فيها المدافع على الجبهتين ، الطرفان حول الضفة يجتهدان لمدة عشرين يوما لمعرفة الغير مصدق حدوثه ، لملمت مصر جراحها طوال تلك الأيام ، كأنها كانت في كابوس غافل جسدها .. استيقظت مصر من كابوسها في رأس العش ، فقبل غروب يوم الجمعة 30 يونيه 1967 ، وعلى طريق القنطرة شرق / بور فؤاد رصدت المخابرات الحربية المصرية طابورا من 10 دبابات للعدو مع 12 عربة محملة بجنوده تتجه صوب بور فؤاد ..

انتشر الخبر كالبرق بين عدة أفراد من الصاعقة المصرية ، تجمع على الفور ثلاثون رجلا من بقايا الكتيبتين 43 ، 103 تحت قيادة الرائد صاعقة السيد الشرقاوي ، أصيبت بعض الدبابات من جراء أسلحة خفيفة يحملها الأبطال في أيديهم ثم انسحب الطابور ، لكن العدو عاد بعد ساعتين وهم معزز بضعف العدد السابق من الدبابات والجنود ..

استمر القتال في رأس العش طوال الليل ، الرئيس عبد الناصر يتابع المعركة على الهواء حتى طلوع فجر السبت ويسمع زخات الرصاص ، فقد ترك أحد جنودنا اللاسلكي الخاص به مفتوحا دون قصد فربطت المخابرات الحربية الخط على منزل الرئيس بناء على طلبه ، الرقيب حسنى سلامة يبدع في الرمي ، الرئيس يسمع رفاقه ينادونه ثمان مرات فيسجل ذلك في ورقة أمامه ، الملازم محمود الجزار يسقط شهيدا ، النقيب سيد إمبابى يدخل الذخيرة والمؤن وكأنه على موعد مع الشهادة ، لكنها تعرض عنه .. يأس العدو في الوصول إلى بور فؤاد ، فانسحب مخلفا خسائره وترك بعض معداته في حالة سليمة ..

(بطل مصر المغوار المساعد حسنى سلامة استحق بجدارة أن يكون أيضا بطل عملية لسان بور توفيق في 10 يوليو 1969 حيث دمر وحده ثلاث دبابات من أصل خمسة دمرتها قوة الصاعقة التي كانت تتكون من 140 مقاتل) ..

رسمت مصر خريطتها في رأس العش ، لأن القائد كان منصهرا مع جنوده ، يعيش بينهم ويأكل طعامهم .. ربما مازال يذكر بعضنا قبل النكسة دورية الاستطلاع التي كان يرأسها اللواء عبد المنعم رياض ، غاصت يومها الدورية داخل فلسطين المحتلة ، وضع القادة أياديهم على قلوبهم ، ماذا لو وقع اللواء رياض في الأسر ؟ لماذا لم يأمر أحد صغار الضباط ليترأس تلك الدورية ؟
وقع بعض أفراد الاستطلاع في الأسر ، تكهربت القيادة المصرية العسكرية وأخبرت الرئيس عبد الناصر ، راديو إسرائيل يذيع أسماء من وقع في الأسر ، لكن اسم الجنرال الذهبي ليس بينهم ، هل هي خديعة من إسرائيل ؟

مرت ساعات طويلة كأنها الدهر حتى لمحت إحدى الوحدات المتقدمة اللواء رياض وهو يمسك بمسدسه في يده عائدا ، كيف أقنعكم على مواجهة العدو إذا لم أتقدم قبلكم ؟ قالها اللواء رياض وهو يقف بين جنوده وضباطه الصغار يشرح ما حدث ، كنت سأقاتل حتى الرصاصة قبل الأخيرة من مسدسي هذا ، اطمئنوا على ما أحمل من معلومات عسكرية ، فلم أكن لأمكنهم من أسرى لأن الرصاصة الأخيرة كنت أحتفظ بها لرأسي ..

طوّر الجنرال الذهبي إستراتيجية مصر العسكرية ، عرف أن التلاحم القتالي اليومي المباشر مع العدو وإيقاع أكبر قدر من الخسائر البشرية في صفوفه هو أقرب الطرق إلى النصر ، كالملاكم المحترف الذي يركز الضربات على نقطة الضعف التي لمحها في خصمه ..

أجهد الفريق عبد المنعم رياض كل من عمل معه ، كان ينام قليلا ويعمل كثير ويتحرك في أماكن مختلفة لإنجاز أكبر قدر لبناء جيش مصر الحديث ، كان دائم الإطلاع والقراءة في المراجع الأجنبية ليتابع أحدث الأساليب العسكرية ، وضمنت طلاقته في الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية ذلك ليتابع الجديد بالمدارس العسكرية المختلفة حول العالم ، فقد قال للرئيس عبد الناصر " ياريس ، حتى لو أعطونا الأرض بالدبلوماسية ، لابد من معركة نسترد بها كرامتها " ..

في صباح السبت 8 مارس 1969 كان في بغداد لحضور اجتماع لرؤساء أركان الجبهة الشرقية ، أنهى الاجتماع وعاد سريعا إلى القاهرة .. كان السبت ملتهبا فقد كانت فيه معركة المدافع الكبرى ، دكت فيه 34 كتيبة للمدفعية المصرية نيرانها

طوال النهار على مواقع العدو في الجبهة الشرقية ، أصيب يومها العدو بخسائر كبيرة في أفراده ومعداته ..

كان لابد أن يزور الفريق عبد المنعم رياض قواته في الجبهة بعد يوم تطايرت فيه حمم النار على العدو عبر القناة ، من قطاع إلى قطاع ، ومن موقع إلى موقع ، لم يكن ليرضى أن يتابع من مقر قيادته في القاهرة ما نتج عن معركة الأمس ، مرّ في آخر جولته على موقع المعدية 6 حيث يؤدى الأشقاء في الجيش الجزائري واجبهم ، كان الموقع لا يبعد سوى 250 مترا عن العدو عبر القناة ، كان أكثر المواقع قربا للعدو وأشدها التهابا ، أصر الأشقاء الجزائريون على أن يكون هذا الموقع لهم ، رصد العدو عربته وانصبت نيران مدفعيتهم على الموقع ، فاضت روح الفريق رياض بسبب قوة التفريغ الهوائي للقذيفة ، ليكتب بدمه صفحة من تاريخ العسكرية المصرية الحديثة ..

لم يكن عبد الناصر ليغيب عن جنازة مفخرة مصر العسكرية ، مهما كانت الأوضاع الأمنية ، غاص يومها بين المواطنين ، وغاص معه الحرس الجمهوري ، تنبه رؤساء الأركان العرب الذين حضروا ليودعوا زميلهم وفرضوا حائطا بشريا حوله لحمايته ، في المساء ذهب رؤساء الأركان إلى بيت الرئيس ، هناك يقول أحدهم (رئيس الأركان السوري) سيادة الرئيس : ما رأيناه اليوم من الشعب المصري هو أكبر عزاء لك في استشهاد عبد المنعم رياض ، يقاطعه الرئيس عبد الناصر قائلا : " أنا ذهبت إلى الجنازة لمشاركة الناس وليس لتقبل العزاء في رياض ، العزاء الوحيد عندي ، وعند رياض ، وعند كل العسكريين المصريين ، هو تحرير الأرض ، كل الأرض ، لا أتكلم هنا عن سيناء فأمرها محسوم ، أتكلم عن القدس قبل الجولان " ..

رحم الله عبد المنعم رياض وجعل مثواه مع النبيين والصديقين والشهداء ، آمين ..

رائف محمد الويشى
سانت لويس – ميزورى – أمريكا
elwisheer@yahoo.com
تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلى :
www.thowarmisr.com